الدكتور حازم الحاج طه

التشبيه عند المبرّد
في كتاب الكامل

اذا كان النحو العربي قد نضج واحترق عند بعض الدارسين، فان البلاغة العربية مازالت مجالا واسعاًللنظر ، وبخاصة اذا عرفنا حاجتنا في دراستها الى الذوق السليم ، وحسن التناول ، وعرفنا أنها تخدم درسنا الأدبي الحديث ايضاً . وقد اردت لدراستي هذه أن تكون مشاركة في تمثل موقف من مواقف علمائنا القدامى في دائرة البلاغة ، وصاحب هذا الموقف هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥ هـ) وهو من هو في تاريخ عربيتنا الزاهرة . وأكثر الذين أرخوا للبلاغة العربية يعدونه من اولئك السابقين الأولين الذين كانت لهم مشاركات في العناية بوجوه الفن البلاغي الذي تتسم به العبارة العربية (١) ، وجهوده في هذا الميدان معروفة ، وهي تمثل ملامح عرضية من خلال الدرس اللغوي للنصوص الأدبية ، وحين تأتي اشاراتهم على النحو الذي نقرؤه في دراساتهم فان ذلك مستمد من طبيعة المرحلة التي بلغها الدرس البلاغي وهي مرحلة الوصف والاشارات دون التقعيد والتقنين.

وقد تهيأ لي من خلال صحبة طويلة لكتاب (الكامل) أن أقف عند دراسة مؤلفه للتشبيه لأكشف عن طبيعة منهجه في درس هذا الفن الذي نما وتطور على ايدي البلاغيين من بعده، لأن المبرد كان أول العلماء الذين درسوا هذا الفن وكتبوا فيه مثل ذلك البحث المستفيض الذي يدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المعرفة كما يدل على بصره بالأدب وأسباب الجمال في العبارة ، وان كان في بحثه اثر للتقليد وذلك في استحسانه التشبيهات التي أثرت عن السابقين استحساناً مطلقاً مع اعترافه بأن التشبيه أكثر كلام الناس من غير تفريق بين جنس ، ولاشك أنه من خصائص العبارة الأدبية في جميع الآداب على رأي الدكتور بدوي طبانة (٢) . وقد انصب اهتمام العلماء على التشبيه من أول الأمر لأنه أقرب إلى الواقع الحسي ، وأقرب إلى طبيعة الشعر في العصر الجاهلي وصدر الاسلام حتى ان الدكتور عبد العزيز الأهواني قد اعتبره في كثير من الحالات مظهراً من مظاهر البدائية في التفكير والسذاجة الأولية في التعبير ، وقد انتبهوا إلى روعة التشبيه وجماله أن يلتفتوا إلى روعة الاستعارة ، وسحرها (٣)،لان الاستعارة من الزاوية الذوقية تعد تطوراً متقدماً للتشبيه وللوصول

---

(١) ينظر على سبيل المثال في تاريخ البلاغة العربية ، ٤٠ وما بعدها ، الدكتور عبد العزيز عتيق.

(٢) علم البيان ٣٧ — ٣٨

(٣) الدكتور احمد مطلوب ، القزويني وشروح التلخيص ٣٢٢ ،وانظر د.عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ١٢٨

اليها لابد للدارس أن يقف ملياً عند التشبيه يسبر أغواره ويفيد من ثروته الدلالية الممتازة قبل أن ينتقل إلى حقل أكثر تعقيداً وأوفر عطاء . والمبرد حين يدرس التشبيه لايحذو حذو أحد ، ومن هنا كان له موقف خاص أردت أن أتناوله بالدرس في هذا البحث الذي سأجعله على النحو الآتي :

١ ـ أضرب التشبيه

٢ ـ منابعه وحدوده

٣ ـ نماذج من التشبيهات المستحسنة

وهذه العناصر من شأنها فيما أقدر أن تقدم لنا صورة واضحة لحقيقة موقف المبرد في هذه الدائرة البلاغية الواسعة ، حتى انه قد وضع لنفسه مقاييس خاصة سيعرض لها هذا البحث بالتفصيل وسأسوقها تحت العنوان الآتي :

** ١ ـ أضرب التشبيه :

نحن نعلم أن في (التشبيه علاقة مقارنة تجمع بين طرفين ، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة ، أو مجموعة من الصفات والأحوال . هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية ، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين ، دون أن يكون من الضرورة أن يشترك الطرفان في البيئة المادية ، او في كثير من الصفات المحسوسة فان العلاقة التي تربط بينهما هي علاقة مقارنة أساساً وليست علاقة اتحاد أو تفاعل ، بمعنى أنه لايحدث ـ داخل التشبيه ـ تجاوز مفرط في دلالة الكلمات ، بحيث يصبح هذا الطرف ذاك الآخر ، ولو على سبيل الايهام أو تتفاعل دلالات الأطراف مكونة دلالة جديدة هي محصلة لهذا التفاعل كما قد يحدث في الاستعارة. ان التشبيه هو محض مقارنة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة نفسها ، أو في مقتضى وحكم لها) (٤) . ولهذا كان التشبيه عند العربي مجالا فنيا للتلوين والتخيل في كثير من الأحيان وقد يصل الأمر بهم إلى مبالغ مختلفة في التدقيق أو السطحية أو غير ذلك ولهذا نرى المبرد يجنح إلى تحقيق شيء من ذلك في تقسيماته للتشبيه ، فيقول : (والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام) (٥) .

(٤) دكتور جابر احمد عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي

(٥) المبرد : الكامل ، تعليق محمد أبي الفضل ابراهيم ١٢٨/٣

• الأول : المفرط

فالنوع الأول عند المبرد : هو الذي لايتوفر فيه وجه الشبه في المشبه بصورة تتكافأ وتنسجم مع الواقع ، اذ أن وجه الشبه في المشبه لايداني موقعه من المشبه به ، بل ان بينهما فارقاً قصياً يؤول إلى غلو أو اغراق في تشخيص وجه المشبه ، وما يراد بذلك الا رفع المشبه إلى مقام يكون الذروة في التشبيه مدحاً كان التشبيه أم ذماً . فالاديب الذي يوقع مثل هذا هذا التشبيه في كلامه مبالغ في ذلك ، فتشبيه الرجل الكريم بالبحر مثلا أمر بدهي لكن تدفق كرم الرجل لايبلغ تدفق البحر مهما كان الكرم وكانت السماحة .... ويورد المبرد أمثلة لذلك فيقول : (فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي : هو كالبحر . وللشجاع : هو كالاسد ، وللشريف : سما حتى بلغ النجم ثم زادوا فوق ذلك ، فمن ذلك قول بعضهم وهو بكر بن النطاح ، يقوله لأبي دلف القاسم بن عيسى :

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها(٦) على البر صار البر أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزة كان الخلي من العمر) (٧)

حقاً ان هذا المدح — كما عده المبرد — من الافراط المتجاوز ، فالشاعر قد عرض صورة بالغ أشد المبالغة فيها ، اذ تخيل العالم كله في شخص رجل فارس ثم جعله بشجاعته الفذة ندا للمدوح ، وسنجد في آخر الأمر أن هذا الفارس الاسطوري ينسلخ عن الحياة بقدرة الممدوح ، وهذا مانفهمه من قوله :

ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزة كان الخلي من العمر

والسؤال بعد هذا البيت : ماتقدير الشاعر بضراوة ممدوحه أبي دلف وقوته وهنا تكمن المبالغة . وقد أشار اليها المبرد بأنها من التشبيه المفرط المتجاوز وهذا مايفسره لنا خبر ساقه بعد ايراده هذه الأبيات (وقد قيل ان أمراة عمران بن حطان قالت له : أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط ؟ : أو فعلت قالت : أنت القائل :

فهناك مجزأة بن ثور كان أشجع من اسامة

أفيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : فقال : أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والاسد لايفتح مدينة (٨) .

---

(٦) مسك — بفتح وسكون — الجلد
(٧) المبرد : الكامل ٣/١٢٨
(٨) المصدر نفسه ٣/١٢٨

وقد وقف المبرد من بعض نماذج هذا النوع من التشبيه وقفة نقدية لماحة دالة على نفوذ فكر، وبصيرة نيرة ، واحساس بأسرار الكلام . فقال : (ومن عجيب التشبيه في افراط غير أنه خرج في كلام جيد ، وعني به رجل جليل فخرج باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ، ثم جعل لجودة ألفاظه ، وحسن رصفه واستواء نظمه ، في غاية مايستحسن — قول النابغة يعني حصن بن حذيفة :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم (٩) وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعما قليل ثم جاء نعيه فظل نبدي الحي وهو ينوح) (١٠)

وكان صائب الرأي في جعل هذه الأبيات من عجيب التشبيه المفرط ، مع انه جعله في غاية مايستحسن لجودة الفاظه ، وحسن رصفه ، واستواء نظمه ، وعده من التشبيه المفرط لأن المشبه به كما نتصوره هو حلول يوم القيامة وفيه تجنح الجبال للانثيال والزوال، وتلفظ القبور الموتى ، وتزول الجبال ، ولكن حين مات حصن بن حذيفة ، وان كان موته كهول هذا اليوم فقد بقيت الجبال قائمة في أماكنها فلم تضطرب ، والموتى راقدة في قبورها ، والنجوم في مواقعها ، وأديم الأرض لم يتشقق ، وقد شعر الشاعر بعظم حدث الموت وبدا له ان يشبهه أول الامر بيوم القيامة . وتساؤله فيه استنكار لبقاء الكون على حاله على الرغم من هذا الحدث الجلل ، وهذا يؤكد تشبيه الحدث بيوم القيامة ، ويضفي عليه روعة ، على الرغم من مبالغته (فالافراط في التشبيه ليس كذابا وانما هو قول صدق موشى بزينة المبالغة تلك التي لاحظها المبرد وأعجب بها ايما اعجاب) (١١) .

أما الثاني ، وهو المصيب — وقد عبر عنه أحياناً بالقاصد الصحيح (١٢) فهو الذي يتعادل فيه وجود وجه الشبه بين الطرفين بصورة لانحس فيها أية مغالاة أو مجافاة للحقيقة ، وهذا النوع المنطقي من التشبيه يأتي على أصل تصور المعاني . ومن أمثلة هذا الضرب عند المبرد قول النابغة :

---

(٩) نفوسهم : ان تصدق هذا النبأ لفداحته وعظمه . وجنوح : مصدر جنح — مال وسكن ، يريد مابال الجبال ساكنة مطمئنة لم تتصدع لموته .
(١٠) المصدر نفسه ١٢٨/٣
(١١) دكتور عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٤
(١٢) المبرد : الكامل ١٣٠/٣

وعيد ابي قابوس في غير كنهه (١٣) أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني (١٤) ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع
يسهد من نوم العشاء سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها (١٥) الراقون من سوء سمها تطلقه طوراً وطوراً تراجع) (١٦)

وعلق المبرد على هذا بقوله (فهذه صفة الخائف المهموم ، ومثل ذلك قول الآخر :

تبيت الهموم الطارقات يعدنني كما تعتري الاوصاب رأس المطلق

والمطلق هو الذي ذكره النابغة في قوله (تطلقه طوراً وطوراً تراجع) ، وذلك ان المنهوش إذ الح الوجع به تارة ، وامسك عنه تارة ، فقد قارب ان يؤوس من برئه ، وانما ذكر خوفه من النعمان وما يتوعده من لوعة في اثر لوعة ، والفترة بينهما ، والخائف لاينام الا غراراً فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد . وقوله (لحلي النساء في يديه قعاقع) لانهم كانوا يعقلون حلي النساء على الملدوغ ان ذلك من اسباب البرء ،لانه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم فلا ينام ، فيدب السم فيه ، ويسهد لذلك) (١٨) .

اننا لنحس ان ترتيب الابيات التي قام عليها هذا الشرح غير منطقي لأن فيه خللاً يتجلى في عدم الترابط بين مكونات الصورة بشكل منسق ومنضبط ولو رتبت الابيات على النحو الآتي : (وعيد ، فبت ، تناذرها) لكان الترابط حينئذ اكثر دقة ،بل انه الواجب الذي لابد ان نتمسك به ، إذ تستقيم الصورة التي ارادها الشاعر ، فمساورة الحية لفريستها ، ووجود السم مجتمعاً في انيابها وخطورة هذا السم الذي تطلقه طوراً وطوراً تراجع مما جعل الراقيين يتناذرونها ويتحاشونها ثم لو حدث ونالت من فريستها لكانت الفريسة في حالة من السوء لاتعرف معها النوم نتيجة تقعقع حلي النساء في يديها . هذه المقدمات كلها مما تثير فزعاً ما بعده من فزع في نفس الفريسة التي تتوائبها هذه الافعى ،فالفزع قبل وقوع البلاء اشد منه بعد وقوعه . وهذه حال الشاعر يتلقى الوعيد قبل وقوعه ، ولذلك يكون

---

(١٣) كنه الشيء : حقيقته . وراكس : اسم واد ، والضواجع : مرضع ، وكلاهما بديار غطفان
(١٤) ساور : من المساورة وهي المواثبة . والضئيلة : الحية الدقيقة . والرقش : جمع رقشاء ، وهي الحية التي فيها نقط سود وبيض . وناقع : ثابت مجتمع ، من نقع الماء في الغدير نقوعاً : ثبت واجتمع .
(١٥) تناذرها الراقون : أنذر بعضهم بعضاً أن لا يتعرض لها .
(١٦) المبرد : الكامل ١٣٠/٣
(١٧) هو شاس بن نهار العبدي
(١٨) المصدر نفسه ١٣٠/٣ — ١٣١

التشبيه اكثر توازناً بين الحالتين مما يتحقق معه التشبيه المصيب ، ونظن ان الصواب قد جانب المبرد في شرحه لهذه الابيات وتعليقه عليها كما نقلناه آنفاً . فالصورة كما تبدوا لنا من الابيات وتعليقه عليها كما نقلناه آنفاً. ان وعيد ابي قابوس ليس مقصوداً به حقيقته لقوله(في غير كنهه) وعلى الرغم من ذلك فقد اورث النابغة ارقاً لايقر معه قرار ، فما بالنا لو كان هذا الوعيد حقيقة مقصودة ونية مبينة . وهنا تتضح الصورة اجمل في المبالغة في الخوف على الرغم من عدم حقيقة الوعيد ، وربما كانت الصلة اوضح بين هذا الوعيد الذي هو في غير كنهة وبين سم الافعى الذي (تطلقه طوراً وطوراً تراجع) فالحية لم ترسل سمها حقاً . وانما هي بين ارساله وحجبه كوعيد ابي قابوس المرسل واحتمال حجبه . وعلى هذا نتصور ان يكون ترتيب الابيات على النحو الذي افترضناه .

وقد اراد المبرد ان يدقق في وصف التشبيه المصيب فرأى ان احسنه (ماجاء باجماع الرواة قول امرىء القيس : (١٩)

كأن تلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها (٢٠) العناب والحشف البالي

وهو على رأيه كلام مختصر وقع في بيت واحد وشبهت فيه حالتان مختلفتان بشيئين مختلفين. واضاف المبرد على هذا قوله في شرح معنى البيت (فهذا مفهوم المعنى ، فان اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال كأنه رطباً العناب. وكأنه يابساً الحشف قيل له : العربي الفصيح الفطن اللقن يرمي بالقول مفهوماً ، ويرى مابعد ذلك من التكرير عيا . قال الله جل وعز وله المثل الاعلى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)(٢١) علماً بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون ووقت الاكتساب) (٢٢) .

فنرى المبرد يتخيل معترضاً على ترتيب التشبيهين في البيت . ثم يرد عليه مبيناً وجه الصواب في البيت مستأنساً بالآية الكريمة . والبيت جمع إلى سمو المعنى روعة التصوير . وحلوا اللفظ . وحسن المقابلة . ودقة الجمع . اذ شبه الرطب الطري من قلوب الطير بالعناب في (الشكل واللون والمقدار) وشبه اليابس العتيق منها بالحشف البالي . فالمشبه متعدد وهو الرطب الطري من قلوب الطير . واليابس العتيق منها، والمشبه به متعدد كذلك وهو العناب والحشف البالي،اما الثالث — وهو المقارب — : فهو الذي نرى فيه المشبه قريباً جداً من صورته في المشبه به . ولا يقوم بينهما اتفاق كامل كما نرى في النوع الثاني . كما

(١٩) المبرد : الكامل ٢٣/٣

(٢٠) الوكر : عن الطائر . والعناب : حب أحمر مائل الى الكدرة في جميع قلوب الطير الرطبة. والحشف البالي : ردىء التمر .

(٢١) سورة القصص .. آية ٧٣

(٢٢) المصدر نفسه ٣٢/٣

لاتقوم بينهما مبالغة مسرفة كما ورد في النوع الاول.ومن امثلته قول ذي الرمة:(٢٣).

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته (٢٤) المظلمات الحنادس

ظاهر البيت إرادة وصف الرمل الذي تغوص فيه الاقدام والشاعر يخب فيه ثم لايجد صورة تناظر هذه الصورة بدقة وجمال الا صورة اوراك الفتيات العذارى لينها واكتناز لحمها. ووجهالشبه بين هاتين الصورتين ان فيهما مطارعة وفيهما ترة في الوقت نفسه، فالرمل تغوص فيه القدم ولكنه يتحمل ثقل السالك فلا ينخرق تحت اقدامه وكذلك هذه الاوراك .. وامعان النظر في هذا النص يقفنا على رأي يخالف التصور الذي يوحي به ظاهر البيت وهو خلاف مارأى المبرد منه ايضاً حتى عده من (حلو التشبيه وقريبه وصريح الكلام وبليغه) (٢٥) ورأى ان هذا التشبيه على الرغم من موازنته بين الطرفين في تلك الخاصية المشتركة بين طبيعة الرمال عند وطئها واوراك العذارى الا ان الصورة التي يسرتها ذو الرمة لاتعتمد على طبيعة تركيبها وحدها دون ان يكون خيال السامع وتصوره لهذه الصورة وانفعاله بها مشاركاً للشاعر . وفي هذه الصورة التي ساقها احتمال انصراف ذهن السامع عن حقيقة المعنى الذي اراد . بل قد يقع في ذهنه فهم لمعنى آخر غير هذا المعنى تماماً في وطء اوراك العذارى من متعة معينة خاصة في ظلمة الليل الحالك مما يجعل تسرة السير على الرمال في هذه الحالة — وهو المعنى الذي اراده — يتوارى تماماً وتبهت صورته في مخيلة السامع مما يمثل عامل ضعف لهذا التشبيه . بل قد يجعله في غير موضعه .

اما الرابع — وهو البعيد :— فهو الذي يجعل الناظر في التشبيه لا يدرك عفواً ملامح وجه الشبه بين الطرفين . بل انه يحس بأن التشبيه ليس بصحيح. ولكن بعد كد ذهن، وارهاق خاطر يدرك مع تحفظ وجود هذا الشبه بين الطرفين . وقد ضرب المبرد لهذا النوع مثلا واحداً وهو قول الشاعر :

بل لـو رأتني اخـت جيرانـنـا اذ انا فـي الـدار كـأني حمـار

وعلق عليه بقوله :(فانما اراد الصحة . فهذا بعيد لان السامع انما يستدل عليه بغيره : وقد قال الله جل وعز — وهذا البين الواضح — كمثل الحمار اسفاراً (٢٦) والسفر الكتاب

---

(٢٣) المبرد : الكامل ١٠٩/٣

(٢٤) جللته : لبسته . والحنادس : الليالي المظلمة . والحندس : الظلام

(٢٥) المصدر نفسه ١٠٩/٣

(٢٦) سورة الجمعة:اية ٥

وقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها امثل الحمار) (٢٧) انهم قد تعاموا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم مافيها) (٢٨) .

شبه اليهود وقد حملوا التوراة وقرأوها وفقهوها وعلموا ماحوت من أوامر ونواه وعبر وعظات ولكنهم لم يعملوا بها.ولا انتفعوا باياتها بحال حمار يحمل أسفاراً هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول وهو جاهل بما تحويه . لاحظ له منها الا مايناله من النصب والتعب. وأوجه الشبه اذن عناء كل بما يحمل وماله من المنافع العظيمة .والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شيء من تلك المنافع أو يعود عليه بعض تلك الفوائد.

ثم قال :(وهجا مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة قوماً من رواة الشعر بأنهم لايعلمون ماهو على كثرة استكثارهم لروايته فقال :

زوامـــل (٢٩) للاشعار لاعلم عندهم
بجيــدهــا الا كعلـــــم الاباعـــر
لعمـــرك مايدري البعير إذا غـــدا
بأوساقــه أوراح مافـــي الغـــرائـــر)(٣٠)

ان هؤلاء الرهط جمعوا روائع الشعر .لكنهم لم يعوا مافيها من مثل . وحوافز ماهو حسن وما هو مرضي .فشأنهم كشأن الابل تعلو ظهورها أو ساق موقرة بالحكم .

ولكن ليس لها من هذا الحكم غير عناء الحمل وشقائه .وفي هذا العرض الذي قدمناه توضيح لمنهج المبرد في موقفه من التشبيه ونظرته إلى شواهده .وطبيعة دراسته لها من خلال تقسيماته الأساسية التي وقفنا عليها (فالمبرد ــ اذن ــ أول من قسم التشبيه إلى هذه الأقسام المتعددة التي ذكرناها ثم جمعها وجعلها أربعة فقط .مفرط . ومصيب . مقارب .وبعيد. وفي كل قسم من هذه الأقسام كان يتمثل بالشعر .ويكثر من الاستشهاد به .وهو في كل ذلك لم يذكر تعريفاً بهذه الاقسام حتى تتميز عن بعض .ولم يضع لها الضوابط والحدود ولكن شواهده التي ساقها كانت دليلاً على كل قسم وتمييزاً له عن غيره فنرى من شواهد

(٢٧) كان يكفيه كمثل الحمار من قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة) حتى لايتوهم ان هذا مثال آخر .

(٢٨) المبرد : الكامل ١٣٢/٣

(٢٩) زوامل : جمع زاملة . وهي البعير يحمل عليه المتاع والطعام . والأوساق : جمع وسق وهو حمل البعير . والغرائر : جمع الغرارة . وهي الاوعية التي تسمى بالجوالق

(٣٠) والمصدر نفسه ١٣٢/٣

التشبيه المفرط شيئاً من المبالغة ، وفي أمثلة التشبيه المصيب انطباقاً يجري في حدود الممكن والواقع ،وفي دلائل التشبيه المقارب نوعاً من الوضوح والصراحة ،وفي التشبيه البعيد حاجة إلى التأمل والتفسير .ولعله اكتفى بهذه الشواهد وما بها من دلائل على الفرق بين قسم وآخر دون أن يلجأ إلى التمييز بطريقة التعريف ، أو تحليل الشاهد وبيان كونه من هذا القسم دون ذلك (٣١) .

* منابع التشبيه وحدوده

وبعد أن فرغت من عرض كلام المبرد على أضرب التشبيه من حيث الافراط فيه أو الموازنة بين طرفيه واصابة الهدف منه والقرب أو البعد عن ذلك واشارتنا إلى أنه يستعمل المصطلحين الآتيين (التشبيه المتجاوز ، والتشبيه القاصد الصحيح) في ثنايا ذلك . وهما في الواقع لا يجاوزن ماذكره من الأضرب الأربعة المتقدمة .

أرى الاشارة إلى أمرين رأى المبرد فيهما شرطين ليكون التشبيه مستحسناً وهما ما أسميتهما بمنابع التشبيه وحدوده .وهو حين يذكر التشبيه مستحسناً عن أي طريقة تحقق له هذا الحسن ، وكيف يدرك الناقد حقيقة ذلك ،أيكون للذوق أثره المباشر أم لا فالمبرد يذكر أن المستحسن هو الذي أخذ العربي أصله المشبه به عن شيء وهذا الشيء – كما نعلم – لابد أن يكون متوفراً في بيئته التي يتحرك فيها. لأنه لو لم يكن معروف الأصل لدخل في حد التشبيه الغريب ؛ ونحن حين نشير إلى أن المبرد يتوسع في مفهوم التشبيه بعض التوسع حتى يجعل الوصف طرفاً منه لا يعني هذا بالضرورة أنه يجيز لصاحب التشبيه أن يخرج عن الحدود المفروضة للصورتين المتقابلتين . ولهذا يقول (واعلم أن للتشبيه حداً) لأن الأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه فانما ينظر إلى التشبيه من أين وقع .فاذا شبه الوجه بالشمس والقمر ،فانما يراد به الضياء والرونق ، ولا يراد به العظم والاحتراق . قال الله جل وعز (كأنهن بيض مكنون) ٣٢) والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ورقة لونه ،قال الراعي

كأن بيض نعام في ملاحفها (٣٣) إذا اجتلاهن قيظ ليلة ومد) (٣٤) .

---

(٣١) دكتور حسين عبد القادر ، أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٦

(٣٢) سورة الصافات اية ٤٩

(٣٣) الملاحف : الأغطية . والومد: ندى يجيىء في صميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح.

(٣٤) المبرد : الكامل ٣/٥٢

ومعنى حد التشبيه الا يفترض صاحبه وجه شبه ليس بمنطقي كأن يشبه المرأة مثلا بالقمر لغير ارادة استدارة الوجه والاشراق . اما ان يشبهها به في العلو فذلك امر مرفوض لايرتضيه المنطق ولا الواقع . وقد استحسن المبرد وصف جرير صاحبته ام نوح بأنها كالمزنة في قوله :

ماستوصف الناس عن شيء يروقهم الا رأوا أم نوح فوق ما وصفوا
كأنها مزنة غــراء رائحة او درة لايواري ضوءها الصدف

وعلـق عليه بقوله : (فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها قال الاعشى :
كـأن مشيتهـا مـن بيـت جارتهـا مـر السحابـة لاريـث ولا عجل) (٣٥)

وهو لايروم بهذا التشبيه غير وصفها بالتهادي والاتزان في سيرها عزة وعفافاً وحشمة . وكبراً وهذه هي الصفات المستحسنة في النساء ، كما انه لم يرد ايضاً غير اشراق وجهها ووسامته عندما شبهها بالدرة . ولو اراد ان يشبهها بهذه لغرض الصلابة مثلا لانتفى التشبيه .

والتشبيه عند المبرد من اكثر كلام الناس وهذا استنتاج سليم لان المنطق يحتم على المتكلم ان يفصح عن اغراضه العقلية وفي بعض المواقف لايمكن ان يتم هذا الافصاح الا بقرينة وهذه القرينة ربما تكون حركة باليد او إشارة بالرأس . وربما تكون صورة تساعده على الفهم او تعميق دلالة على ما يريد المتكلم به ان يقدمه إلى السامع . والمشبه باعتباره كفة الميزان الاخرى عند المتحدثين قد يكون ما وضع فيها مأخوذا عن اصل معروف ولهذا قال المبرد : (والتشبيه كما ذكرنا من اكثر كلام الناس . وقد وقع على لسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم . وعن اصل اخذوه ان يشبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي او البقرة الوحشية . والأنف بحد السيف . والفم بالخاتم . والشعر بالعناقيد . والعنق بابريق فضة . والساق بالجمار . فهذا كلام جار على الألسن) (٣٦) .

وقد أضاف في موطن آخر : والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والكثيب والغزال والبقرة الوحشية . والسحابة البيضاء . والدرة . والبيض وانما تقصد ، كل شيء إلى شيء) (٣٧) .

---

(٣٥) المبرد : الكامل ٣/٥٣
(٣٦) المصدر نفسه ٣/١٣٢ — ١٣٣
(٣٧) المصدر نفسه ٣/٥٤

ومن امثلة ذلك قول ذي الرمة :

ومية أحسن الثقلين جيداً (٣٨) وسالفة وأحسنهم قذالا
فلم ار مثلها نظراً وعيناً ولا أم الغزال ولا الغزالا
تريك بياض (٣٩) غرتها ووجهاً كقرن الشمس أفتق (٤٠) ثم زالا
أصاب خصاصةً (٤١) فبدا كليلا كلا وانفل سائره انفلالا (٤٢)

فها هو ذو الرمة يشبب بمية فيرى من محاسنها ما لم يتوفر في مثلها لافي الانس ولا في الجن لقد اوتيت جيداً وسالفة وقذالا لم يؤتهن غيرها ولو ان معترضاً انكر هذه المحاسن وأراد ان يشبهها فيجعل نظرتها كنظرة غيرها وعينها كعين من سواها . وانها توشك ان تكون غزالا او ام غزال لحافي الصواب . ووضع الشيء في غير موضعه . انها لما تعرض لك ترى منها غرة تتلألأ . وبياض وجه يشرق نكأتها الشمس عندما تتبدى ثم تتوارى . فظهور الشمس من خلال السحاب كنظرة سريعة من خصاصة . ونور الشمس في مثل هذه الصورة يكون كليلا متراوحاً بين الجلاء والاختفاء . ولكن إلى الاختفاء اميل لأن الشمس ستوغل بعد ذلك في ثنايا السحب ان ذا الرمة في تشبيهه مصور بارع ينقل لنا في شعره صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من اشياء : هو فني في تصويره . استمع اليه في قوله :

تريك بياض غرتها ووجهاً كقرن الشمس افتق ثم زالا

فانه تشبيه رائع يدل على دقة الملاحظة لمظاهر الأشياء . اذ شبه بياض غرتها ووجهها بقرن الشمس وجد فتقاً فبدا ثم توارى .

---

(٣٨) الثقلين : الانس والجن . وسالفة : السالفة . ناحية العنق . والقذالا ن : ناحيتا القفامن الرأس

(٣٩) بياض غرتها : في ديوانه (بياض لبتها)

(٤٠) افتق قرن الشمس : اصاب فتقاً من السحاب فبدا منه . تفول العرب : دام علينا القيم ثم افتقنا ، واذا نظر الى الشمس والقمر من فتق السحاب فهو أحسن مايكون وأشده استنارة.

(٤١) خصاصة : هي كل ثقب من سحاب وباب ومصفاة . وكلا : يريد في سرعة مابدا ثم غاب والعرب اذا أرادت تقليل مدة أو ظهور شيء خفي قالت : (كان فعله أو ظهوره كلا) وانفل : دخل واستتر .

(٤٢) المصدر نفسه ٣/٥٤

ولعل فيما تقدم مايلفت الانظار إلى ان هذه التشبيهات تقع ضمن المحسوساتٍ اذ أنها لاتوغل في الامور المعنوية والخيالية . ولو تصورنا رساماً متخصصاً ينقل هذه الصور اللفظية إلى صورة مرئية لرسم لوحة فنية للمرأة المتصفة بهذه الصفات التي اوردها ونمقها فكر ذي الرمة لأبرز لنا صورة رائعة اشد الروعة بما تحويه من الجمال المتناسق الذي يقع ضمن الموازين الجمالية لعصر ذي الرمة . ولعل العديد من هذه الموازين يصلح للجمال المثالي في عصرنا وقال المبرد ايضاً في موطن آخر مشيراً إلى التشبيه المطرد عند العرب : (ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ماذكروا في سير الناقة وحركة قوائمها قال الشماخ :

كأن ذراعيها ذراعا مدلة (٤٣)
بعيد السباب حاولت ان تعذرا
من البيض (٤٤) اعطافا اذا اتصلت دعت
فراس بن غنم او لقيط بن يعمرا
بها شرق من زعفران وعنبر (٤٥)
اطارت من الحسن الرداء المحبرا
وتقرل وقد بل الدموع خمارها
أبى عفتي ومنصبي ان أعيرا
كأن بذفراها (٤٦) مناديل فارقت
أكف رجال يعصرون الصنوبرا
كأن ابن آوى موثق تحت غرضها (٤٧)
اذا هو لم يكلم بنابيه ظفّرا) (٤٨)

---

(٤٣) مدله : أدلت المرأة بجمالها : اجترأت عليك تظهر محاسنها . وبعيد السباب أي عقب المسابه .

(٤٤) البيض : جمع بيضاء . وهي النقية العرض من الدنس . والأعطاف : الجوانب واتصلت : انتسبت . وفراس : رجل عزيز وغنم – بالفتح – وهو إبن تغلب . أو لقيط (أو) بمعنى (الواو) . ولقيط بن يعمر : رجل عزيز .

(٤٥) شرق وصدر شرق بالطيب : اذا امتلأ . وأطارت : زمت . والمجتر : المزين

(٤٦) الذفري : من نصف المقذ الى اصول الاذنين . وفارقت : قاربت . ويعصرون الصنوبر : يستخرجون ما فيه

(٤٧) موثق : مكتوف . والغرض : حزام الرحل . ويكلم : يجرح . وظفرا : أصابها بأظافره

(٤٨) المصدر نفسه ١٠٣٣

شبه سرعة ذراعي ناقته في السير بذراعي امرأة مدلة بحسنها وجمالها تريد براءة ساحتها عما رموها به ، وهي النقية العرض من الدنس ، الطاهرة الذيل ، الحصان التي لا تنزل الريبة بساحتها ، اذا انتسبت ، انتسبت إلى اشراف الناس . ولهذا فانها لاتفتر عن نفي ما رميت به ، وانها لا تختمر كيلا تحتجب مفاتنها عن الناظرين ، ولا بتهاجها لكل ما في وجهها من المفاتن والمحاسن . ولربما عد هذا التبرج عيباً فيها ولكنها تنفي ذلك بدموعها وتقول انني ذات عفة ومنصب ونسب .... ثم يعود إلى ناقته وقد اغذت السير . واصابها النصب ، ووالت الهدر حتى اسودت ذفراها كأنها مناديل رجال قد اعتصروا الصنوبر ، وكأن ابن آوى قد توارى تحت غرضها الذي يعلو ويهبط من شدة العدو ، فهوان لم يجرحها بنابيه خدشها ، فهي لا تهدأ ولا تجد برد الطمأنينة .

هذا التشبيه البارع المصور للمرأة وهي تذب عن عرضها وتحمي حصانتها هو الدافع إلى انفعالها وغضبها وتحمسها في المسابة والاعتذار كل اولئك مما يجعل يديها اشد سرعة ، وأقوى حركة ، وهذا ما حدا بالشاعر ان يستمد من هذه الصورة الاجتماعية المألوفة السمات الفنية لابراز الخصائص القوية التي اتسمت بها هذه الناقة .

وإذ قد تراءى بنا الحديث على منابع التشبيه وصدوره . وتباعد اطرافه وجب علينا ان نقف وقفة عند لون من التشبيه تعرض له المبرد فيه شيء من العمق والدقة ، وهو التشبيه الذي لم يرد صريحا على ما الف في هذا الباب . فيقول : (والعرب تختصر في التشبيه ، وربما اومأت به ايماء . قال احد الرجاز :

بتنا بحسان (٤٩) ومعزاه تئط ... مازلت اسعى بينهم وألتبط
حتى اذا كاد الظلام يختلط ... جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

فالمذق عنده مقول في لون الذئب . واللبن اذا جهد (٥٠) وخلط بالماء ضرب إلى الغبرة) (٥١) .

---

(٤٩) بحسان : اسم رجل استضافه . وتئط : من الاطيط . وهو صوت الامعاء من الجوع واسعى بينهم . يريد بين حي حسان . والالتباط : العدو والوثوب . يريد بذلك طلب الغذاء .
(٥٠) جهد اللبن : اخرج زبده كله .
(٥١) المصدر نفسه ٢/١٤٩

هذه لفتة من المبرد لطيفة دقيقة ، وكأنه يقول ان من صور التشبيه ما لايجيء بالأدوات المعروفة ، وانما تجيء باسلوب آخر في صورة الاستفهام مثلا، بحيث يكون مضمون الاستفهام دالا على المقصود من التشبيه ، وهذه الملاحظة مهد بها المبرد لتسمية هذا اللون التشبيهي عند البلاغيين بالتشبيه الضمني . (فكلمة الذئب هنا أغنتنا من تفصيل كثير كنا في حاجة اليه لو لم يأت التشبيه) (٥٢) ذلك أننا لو أردنا التفصيل لكان علينا أن نقول ان هذا اللبن الذي ضرب بلونه الى الغبرة بعد خلطه بالماء يشبه لون الذئب الضارب جلده الى الغبرة .

٣ – نماذج من التشبيهات المستحسنة :

ولعلنا استطعنا فيما تقدم أن نرسم صورة لمذهب المبرد في دراسة التشبيه ، وتحديد ما يتعلق بأضربه ومنابعه وحدوده ، ولا مندوحة لنا من وقفة عند نصوص في التشبيه أثارت في نفسه الاعجاب والاستحسان والنقد لتستبين لنا رقة ذوقه ، ودقة فهمه ، وحسن تفضيله . ومما يجدر بنا ان نشير اليه في هذا المقام انه لم يقتصر على آثار القدماء وما ورد لهم من تشبيهات رائعة ، بل انه استحسن كثيراً من شعر المحدثين ووقف منه موقف الاعجاب لقيمة ما أتوا به ، وجودته ونفاسته ، واتخذ من شعرهم الحسن بن هانيء نموذجاً لروائع التشبيهات ، وقرن اليه شعر آخرين من بشار وغيره .

أ – قال أمرؤ القيس :

اذا ما الثريا في السماء تعرضت

تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقد علق المبرد عليه قائلا : (وقد اكثر الناس في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الالفاظ) (٥٣) .

كان يجدر به أن يستعرض طرفاً مما قاله الشعراء في الثريا كي يتمكن القارىء ان يوازن ثم يحكم ، وان كنا نرى البيت يستأثر بكثير من سمو المعنى ، وروعة التصوير . والشعراء الذين وصفوا الثريا كثيرون نختار منهم واحداً ونوازن بينه وبين امرىء القيس .

---

(٥٢) علي الجندي : فن التشبيه ٥٨/١

(٥٣) المبرد : الكامل ٣٣/٣

قال أبو قيس بن الأسلت : (٥٤)

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى

كعنقود ملاحية (٥٥) حين نورا

لقد شبه امرؤ القيس (الثريا) بالوشاح المطوي المطرز الذي فصل مابين كل خرزتين فيه بلؤلؤة أو حبة من فضة . اذ كان العرب يحلون الوشاح بأجرام مستديرة بيض على شكل مثلث ليست متصلة ولامتباعدة ليتحقق التشبيه ، ولو كانت الأجرام على سنن واحد طوالا ، أو كانت متلاصقة لبطل التشبيه .

وأما أبو قيس فقد شبه(الثريا)بعنقود ملاحيةحين لاحظ في الثريا الأنجم نفسها وشكلها ولونها وانتظامها على هيئة مثلث ثم طلب لذلك نظيراً فأصابه في عنقود العنب حين يظهر نوره فان فيه أجراماً صغاراً بيضاً مستديرة مؤلفة على شكل ليست متلاصقة ولا متباعدة . ووجه الشبه بين البيتين هيئة اجتماع صور بيض مستديرة صغار المقادير لا هي منضمة شديدة الانضمام ، ولا هي متباعدة شديدة البعد ، والملحوظ أن البيتين قد توفرا على مجموعة من الصور الحسية المنظورة . والبلاغيون يعدون تقابل الصور وتناظرها تمثيلا بسبب التركيب الذي تتمخض عنه صورة من الصورتين ، ولا يمكن أن يصل الأديب الى احسان هذا النوع من الفن البلاغي الا اذا نظر نظرة امعان وروية يخرج منها مايدعو الى الاستحسان والاعجاب . ولهذا تفاوت الأدباء في قدرتهم على ذلك ، وحين تبدر من أحدهم قولة فيها شيء منه تبدو مثار الدهشة اذا نظر فيها الى عبقرية الأديب على التنظير بين الصورتين ، ولعل اعجاب المبرد ببيت امرىء القيس مصدره أن الثريا كانت قد علت الأفق فانكشفت وأبدت محاسنها للناظرين،وعلى هذا لم يكن المشبه مفرداً،بل انه الثريا بما دار حولها من مكملات صورتها ، ويقابلها في الطرف الآخر الوشاح الذي تتمنطق به الحسناء وفيه من الأحجار الكريمة والفضة ما يلمع في طياته ، ولم يرد الشاعر الوشاح مجرداً لأنه قد يوجد وشاح يخلو من كل ذلك ، كما أن المشبه به في بيت ابن الأسلت لم يكن أي عنقود من العنب ، بل انه (عنقود ملاحية حين نوره بالظهور) .

---

(٥٤) الاسلت : لقب ابيه واسمه عامر بن هاشم بن وائل . وهو من شعراء الجاهلية

(٥٥) الملاحي : — بضم الميم — عنب ابيض في حبه طول . ونور : تفتح نوره .

ب— وقال أيضاً في ثبات الليل وطوله (٥٦) :

فيالك (٥٧) من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

عانى امرؤ القيس الأرق لما به من هموم مبرحة ، وآلام مضنية ، وأحزان مقيمة وكان يرقب النجوم فلم يرها تزايل مكانها أو تبرح مواقعها ، فتخيلها كأنها مشدودة بأمراس شدت الى جبل يذبل فغدا طول الليل مثار شكواه ، ومناط عجبه .

ج — ومن أعجب التشبيه قول النابغة (٥٨) :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ان النابغة في هذا البيت يمدح النعمان ، وان كنا نحس خوفه الا انه خوف شاعر بارع بأساليب البيان، مفتن فيها ، دقيق الاشارة ، لطيفها ، فهو يصور سلطان النعمان، وانه لايفوته هارب ، ولذا شبهه بالليل الذي يعم الارض، ويلف برواقه كل قاص ودان : وهو تشبيه رائع جدير بأن يثير الاعجاب والروعة ، لان التشبيه بالليل واقع موقعه ، ولا يقوم مقامه التشبيه بالنهار — وان كان مثله يعم الأرض — لأن المقام مقام رهبة وغضب .

د— وقال ذو الرمة (٥٩) :

وماء قديم العهد بالانس آجن (٦٠)
كأن الدبا ماء الفضا فيه تبصق

وردت اعتسافاً (٦١) والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق
فادلى غلامي دلوه يبتغي بها شفاء الصدى والليل أدهم أبلق (٦٢)

---

(٥٦) المبرد : الكامل ٣/٩٠

(٥٧) فيالك من ليل : تعجب من طول الليل . ومغار الفتل : مشدودة ويذبل : اسم جبل

(٥٨) المصدر نفسه ٣/٣٣

(٥٩) المصدر نفسه ٣/٣٤ آثرنا ترتيب الابيات على النحو الوارد بالديوان لتظل الصورة واضحة المعالم . منتظمة الاطراف على غير ما جاء به من تقديم وتأخير تفسد معه الصورة، انظر ديوان ذي الرمة ١/٤٨٩، ٤٩٦ تحقيق الدكتور عبد القدوس ابي صالح .

(٦٠) آجن : متغير الطعم واللون والدبا : الجراد والغضا شجر له هدبه اذا اكلته الابل اشتكت بطونها

(٦١) الاعتساف : السير على غير هدى . وابن الماء: طير من الطيور ومحلق على مرتفع

(٦٢) أوهم ابلق : فيه سواد وبياض

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها (٦٣) سابري مشبرق

رب ماء آجن لا عهد له بالواردين منذ أمد بعيد ، وأن العناكب ضربت بيوتها عليه . قد ورده بليل وكاد الصدى يرديه فأرسل دلوه يمتح وهو يبتغي برءاً من هذا الصدى ، فاذا بالماء أصفر مشوب بالسواد كأن الجراد قد امتص من شجر الغضا ثم بصقت فيه.

بلغ ذو الرمة في دقة الوصف حد الاتقان والجودة ، ورسم صوراً محكمة التصوير صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، فوفق أيما توفيق ، وأبدع ما شاء له الابداع في هذه الأبيات الغنية بالتشبيهات الرائعة فهو يشبه الماء المتغير لونه بما تحلب من شجر الغضا في الصفرة المشوبة بالسواد ، وأضفى على التشبيه بهجة وراء تخيله أن الجراد امتص من هذا الشجر ثم بصقت فيه والثريا يطير ويحلق ونسيج العنكبوت بثوب رقيق تمزق،والليل وقد نجم فيه الفجر مغرس أدهم أبلق .

هـ — وقال عمر بن أبي ربيعة :

أبصرتها ليلة ونسوتها يمشين بين المقام والحجر
يرفلن (٦٤) في الربط والمروط كما تمشي الهوينى سواكن البقر

علق المبرد عليهما بقوله : (فهذه تشبيهات غريبات مفهومة) والغرابة التي ينبه عليها المبرد أن الشاعر شبه محبوبته بمشيء سواكن البقر ولكن المقصود من هذا التشبيه انما هو التهادي في أناة ولا ينظر الى شيء آخر سواه . ويبدو للقاريء أول وهلة التناقض بين وصف المبرد للتشبيهات في هذين البيتين بالغرابة وبين وصفه اياها بالفهم أي بالوضوح . ولا تناقض بين الوصفين فان العرب تدرك بيسر وجه الشبه بين صفوة من النساء يتهادين ويتمايلن وبين سرب من البقر يسير متهادياً متمهلا . فالصورة واضحة لا يكد الذهن في استيعاب أبعادها ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، ففي الصورة جمال وبراعة وابداع كل أولئك لفتت الأذهان ، واستأثرت بالاعجاب . وهنا تكمن الغرابة ، وبذلك نستطيع أن نقرر باطمئنان أن المبرد أعطى للغرابة مدلولا جمالياً جديداً حيث وصف بالغرابة كل صورة تتجاوز الاطار التقليدي الى هيئة تستأثر بالاعجاب .

وبعد أن أوردنا فيما تقدم نصوصاً من شعر المتقدمين نرى من المناسب أن نعرض لأخرى من نصوص المحدثين جديرة بالدراسة من خلال ما قاله المبرد عنها .

---

(٦٣) العصوان : عرقوبا الدلو . والعرقوبان: الخشبتان اللتان تعترضان على الدلو. والسابري، الرقيق والمشبرق : الممزق .

(٦٤) يرفلن : — بضم الفاء — من رفلت في ثيابها رفلا . جرت ذيلها وماست . والربط جمع ريطة . وهي الملاءة غير ذات لفقين كلها نسيج واحد. والمروط : جمع مرط. وهو كساء من صوف أو كتان .

أ ـ قال المبرد : (ومن أكثرهم (٦٥) تشبيهاً .لاتساعه في القول. وكثرة تفننه .واتساع مذاهبه . الحسن بن هانيء . قال في مديحه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك :

وكنا إذا ما الحائن الجدغره(٦٦) سنا برق غاوٍ أو ضجيج رعاد
ترددى له الفضل بن يحيى بن خالد بماضي (٦٧) الظبا أزهاه طول نجاد
أمام خميس (٦٨) أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد
فما هو إلا الدهر يأتي بصرفه على كل من يشقى به ويعادي (٦٩)

ففي قوله (أمام خميس أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد) يستأثر باعجابنا ما فيه من تنسيق وتقسيم حيث ان الصورتين المتقابلتين فيه صورة الجيش بعدده الكاملة بأنواعها المختلفة . فمنها مايلمع سيفاً أو سناناً ومنها ماهو أسمر رمحاً . وبين هذا وذاك تملأ الأرض ألوان الجياد ، والذي يستشرف هذا المنظر من عل يراه قميصاً محوكاً من قنا وجياد، ومبعث الروعة في هذا التصوير انما هو استغراب من الصورة التي وصفناها . والأغرب من ذلك أن يكون المقابل قميصاً وهو ـ كما نعلم ـ لابد أن يكون شيئاً مفهاناً ليناً والذي يحير اللب ويشده البصيرة أن حياكته من القنا والجياد فالشاعر أفتن في دقةالتصوير افتناناً بعيد المدى واسع الخيال . وان دل هذا على شيء فانما يدل على دقة الشاعر المحدث . ولطف نظره ، ونفاذ خاطره، وتموج عاطفته، والقدرة البارعة على الأداء والتصوير .

على أننا ونحن بإزاء الحديث عن ابداع المولدين في التشبيه وتجويدهم فيه . وان مصدر ذلك ماجد في حياة الأمة من حضارة ولين في العيش . واتساع في ألوان الحياة كل ذلك كان له أبلغ الأثر فيما نظم الشعراء وفي تنظير الأشياء بأمثالها ، يبدو ذلك سمة عامة يتسم بها شعرهم وإن كان الشعر القديم لايخلو من مثل هذه السمة الفنية الطريفة على بداوه الشعراء وبعدهم عن الحضارة وبساطة حياتهم في الصحراء . وقلة مايبعث فيها الحس ويثير الخيال لأنها لاتعدو أن تكون فضاءً واسعاً، أو كثبان رمال ، أو نباتاً موزعاً هنا وهناك ،وهنالك تردد بين جنباتها صنوف من الحيران عني الشاعر القديم بوصفها وافتن أيهما افتتان في ذلك ولاسيما الظبي .

---

(٦٥) الضمير يعود الى المحدثين
(٦٦) الحائن الجد : يقال حان الرجل : إذا دنا مرته ،والجد : الحظ ،ولعله يريد عامر الجد والحظ والغاوي : من الغي وهو الضلال .والرعاد : جمع الرعد وهو صوت يدوي عقب وميض البرق.
(٦٧) ماضي الظبا : الماضي : القاطع . والظبا : ظبة كل شيء حده . ويقال : وخزه بظبة السيف : يراد بذلك حد طرفه . وأزهاه : رفعه وأعلاه . والنجاد : حمائل السيف .
(٦٨) خميس ارجوان : الخميس : الجيش والارجوان بضم الهمزة صبغ احمر شديد الحمرة.
(٦٩) المصدر نفسه ١٣٥/٣ .

وإن بين أيدينا بيتين من شعر المولدين برع الشاعر المولد أشد البراعة في تصوير موقف الوداع والرحيل إذ وصف(الظبي) وصفاً استوقف المبرد وأثار كوامن اعجابه ،وعده من مليح التشبيه وهو قول أبي نؤاس (٧٠)

ب – وكأن سلمى إذ تودعنا وقد اشرأب (٧١) الدمع أن يكفا
رشا (٧٢) تواصين القيان به حتى عقدن بأذنه شنفا

إن الشاعر في هذا التشبيه المليح – كما وصفه المبرد – يشبه صاحبته التي تهم بالرحيل بالظبي وقد بدأ الدمع يكف من عينيها ناصعاً براقاً ولكن كيف يكون الظبي مشبهاً به ازاء هذه الصورة ليس الظبي الشارد في الفلوات .بل أنه الظبي الأليف الذي تتواصى الفتيات بتعليق الأشناف البراقة في أذنيه على امتناع منه واباء وصاحبة الشاعر تبكي ولكنها تعاصي البكاء ويغلبها الدمع وهنا تتماثل الصورتان بشكل دقيق . وان المتأمل في هذه الصورة الرائعة لايخالفنا في أن الشاعر موفق جد التوفيق فيها فأوقعها أحسن موقع .

ونعود ثانية مؤكدين ابداع المحدثين في التشبيه . ومتخذين بشاراً لأنه كان ذا قدرة فائقة في الوصف، واسع الخيال ، تام الجودة ، رائع التصوير ،ومن أروع الصور التي نمقها فكره، وأضفى عليها بيانه حللاً من الرواء والبهجة قوله يصف كلام صاحبته .قال المبرد فيه :

ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار بن برد العقيلي : (٤)

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحراً
وتخال ما جمعت عليه بنانها ذهباً وعطراً

ان بشارا يصف حلاوة كلام صاحبته أبدع تصوير وأروعه . ثم يجهل من أن تأتي هذه الحلاوة أنها سحر بكلامها . وكأن هاروت ذلك الملك الذي أشير أنه كان ببابل فهي وصف جسد هذه الفتاة لاشك في أنه يجهل لون بشرتها وان كان لا يجهل طيب رائحتها . فان ثيابها عنده لم تنضم إلا على جسد من الذهب مضمخ بالعطر . وله الحق في أن يغلو مثل هذا الغلو

---

(٧٠) المصدر نفسه ١٤٢/٣

(٧١) اشرأب الدمع : يقال : اشرأب لأن يكلمني . اذا تهيأ لكلامك . واشرأب الدمع . تهيأ للركف .

(٧٢) الرشا : الظبي اذا قوي واشتد ساعده . وتواصين : اوصت بعضهن بعضا .

نظراً إلى ظرفه الخاص. وبعبارة أصح أن الشاعر كان يتخيل الأشياء ولا يراها . وادراكه لتناظر الصور مسألة عقلية مجردة استطاعت شاعريته الفذة أن تجعلها متسمة بالطابع الفني الذي يتمتع به كثير من الشعراء المبصرين. ولولا الاطالة لسقنا كثيراً من روائع بشار التي بزّ بها كثيراً من الشعراء المبصرين . . .

وخاتمة المطاف أن رأينا فيما تقدم دوران المبرد حول التشبيه . يقسمه ويذكر النماذج لكل قسم ثم يغوص في اصوله وما يراد به في كل حال. وينفي عنه بعض صور الاحتمال التي قد تخرج به عن المقصود . ولأول مرى نرى اماماً في النحو واللغة يعده الناس حجة في النحو واللغة يتناول التشبيه بهذه النظرات الدقيقة النافذة إلى خفايا المعاني . وهو بعد هذا كله لايزعم أنه أحصى فنون التشبيه وصوره المنوعة التي يجيء عليها فيقول : (والتشبيه كثير وهو باب كأنه لاآخر له. وانما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني) (٧٣) ولعل أظهر مايظهر من ثنايا ماتقدمنا من نصوص أن المبرد كان يفهم التشبيه فهماً أدبياً أسلوبياً ، (ويعتبره معنى من المعاني. وليس مجرد صنعه لفظية) (٧٤) وهو بهذا من أولئك العلماء الذين يركن إلى فهمهم الدقيق لعلاقة الفكر بالصورة الفنية وهو في كل ماتقدمه لم يرد وضع قاعدة لهذا النوع من الرسم بالكلمات كما فعل علماء البلاغة حين جعلوا من التشبيه آلة قانونية كما جعل النحاة نحوهم آلة قانونية مع اغفالهم علاقة الذوق بكل ذلك . وهذا يعني أيضاً أنه لم يكن يطمح إلى شيء من التقنين للتشبيه وتقعيده بل أنه رسم له ملامح وسمات عامة يتضح لنا جلياً من خلال تقسيماته وتفصيلاته السابقة . فهو في استعماله لعبارات (المفرط المصيب . المقارب . البعيد . المليح . الحسن ...) لم يهدف إلى وضع مصطلحات محددة لأنواع التشبيه بقدر ماأراد أن يصف هذه الأنواع من خلال الموقف الذوقي الذي حدد في ضوئه تلك الأنواع وفق المنهج الذوقي الذي حدد في ضوئه تلك الأنواع وفق المنهج الذوقي في النقد يصف ولا يحدد . ولست بمسرف إن قلت أن المبرد خطا بالتشبيه خطوات أظهرت نزائده . وأنارت السبيل لمن بعده من العلماء يأخذون عنه ، ويأتون بالمزيد من من الروائع في هذا الفن. وان نظرة إلى المؤلفات التي ألفت في البلاغة من بعده ترينا أكثر الشواهد قبس من جهوده المبثوثة في تضاعيف الكامل . وقد حاول الأستاذ علي الجندي الربط بينه وبين ابن المعتز فقال متكلماً على المبرد (ولعله كان قدوة لأبن المعتز في ذلك)(٧٥). وقال مشيراً إلى ابن المعتز

(٧٣) المصدر نفسه ٣/١٥٢

(٧٤) دكتور عبد القادر حسين . أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٦

(٧٥) علي الجندي : فن التشبيه ٤٠/١

(وعقد باباً سماه حسن التشبيه عرض فيه أمثالا كثيرة للتشبيهات الرائعة البديعة لجماعة من الشعراء القدامى والمحدثين مبتدئاً بأمرىء القيس أيضاً كما ابتدأ المبرد) (٧٦) وأشار الدكتور احمد مطلوب الى ان الخطيب القزويني قد استفاد فيما استفاد مما كتبه المبرد في هذا الفن أيضاً) (٧٧) مما يؤكد انه كان رائداً في دراسة التشبيه ومحاولة وضع معايير له من خلال التقسيمات التي اوضحناها في البحث ومن خلال الامثلة التي ساقها طي كتابه (الكامل) .

المصادر

١ ــ أثر النحاة في البحث البلاغي : الدكتور عبدالقادر حسين . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٧٠

٢ ــ البديع : ابن المعتز . طبع بريطانيا ١٩٣٥

٣ ــ ديوان ذي الرمة : تحقيق الدكتور عبدالقدوس ابي صالح . مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٢

٤ ــ الصور الفنية في التراث النقدي والبلاغي : الدكتور جابر أحمد عصفور . طبع دار الثقافة للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٧٤ .

٥ ــ علم البيان : الدكتور بدوي طبانه . مطبعة الرسالة ــ مصر ١٩٦٢

٦ ــ القزويني وشروح التلخيص : الدكتور احمد مطلوب . مكتبة النهضة ــ بغداد١٩٦٧

٧ ــ فن التشبيه : علي الجندي . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٥٢

٨ ــ في تاريخ البلاغة العربية : الدكتور عبدالعزيز عتيق . طبع دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠

٩ ــ الكامل : المبرد : تحقيق ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاتة . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة

---

(٧٦) المصدر نفسه : ٤١/١ . وانظر ايضا كتاب البديع لعبد الله بن المعتز نشر وتعليق أغناطيوس كراتشفوفسكي ٦٨ــ٧٢ .

(٧٧) القزويني وشروح التلخيص . الدكتور احمد مطلوب ٢٥٤